The reasoning in the critical lesson of Marzabani (384AH): An analytical study.

التعليل في الدرس النقدي عند المرزباني (ت384هـ) دراسة تحليلة

Assistant professor Dr: Adnan Mashaal Rasheed
University of Anbar – College of law and political sciences.
adnanalfars@uoanbar.edu.iq

أ.م.د. عدنان مشعل رشيد
جامعة الانبار –كلية القانون والعلوم السياسية

Receive Date: 21/4/2021 Accept Date: 19/5/2021 Publish Date: 30/6/2021

Doi: 10.37654/aujll.2021.171094

Abstract

The critical reasoning in the book (Al-Muwashah, Scholars' Criticism of Poets in several Types of Poetry Industry) by Abu Abdullah Al-Marzabani (Dead 384 AH) is a critical approach based on the explanation of a number of old rules of criticism. This research identifies the positive and negative reasons for the critical judgments Al-Marzipani gives on the poetry of the ancient and modern poets, seeking to draw the poet's attention to this fact so as to polish his creative work. This is important since poetry is bound to a system and rules which the poet cannot ignore or deviate from.

Keywords: reasoning, critical lesson, Marzabani, analytical study

ملخص البحث:

يعد التعليل النقدي في كتاب (الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر) لأبي عبدالله المرزباني (ت 384هـ) منهجاً نقدياً قائماً على تعليل عدد من الأحكام النقدية القديمة اذ أبان هذا البحث عن ذكر المرزباني للأسباب الموجبة والسالبة للحكم

النقدي بعد اصداره على أشعار القدماء والمحدثين، ساعياً بذلك الى تنبيه الشاعر بهذا؛ ليستقيم عمله الابداعي؛ لأن الشعر مرتبط بنظام وقواعد لا يمكن للشاعر تجاهلها أو الابتعاد عنها.

الكلمات الدلالية: التعليل ، الدرس النقدي، المرزباني، دراسة تحليلية

مقدمة

يرى الكثير أنَّ الذوق الأدبي نشأ فطرياً في ظلّ عادات وتقاليد وأنماط تعبيرية اقتضتها طبيعة الوجود الاجتماعي لحياة العرب قديماً، فصدرت الأحكام النقدية عندهم مرتجلة نتيجة التذوّق الذي أحسَّ به الناقد ، وجاءت أحكامهم موجزة، تفتقر إلى التدليل والتعليل والتفصيل، حتى وإن وجد فهو مبسّط وجزئي ، ولا يتنافى مع ما يقال في التحكيم الفطري، وجعله أساساً لصدور الاحكام النقدية عند العرب أنذاك .

لقد كان النقد مبنيّا على الفطرة وذوقها الذي يحسُّ بالجمال دون أن يذكر السبب، فالناقد يرى أنّ الناس يفهمون ويدركون ما يفهمه ويدركه، وقد يفصح عن السبب؛ لكنّه افصاح بسيط في إشارة أو تلميح، وقد يبيّن ما ألهمه به ذوقه الذي يعتمد على العادة أو على اللغة ومجازها أو فيما تواضع عليه الناس في استعمالها.

يكاد يتفق أغلب الدراسين العرب على أنّ التراث العربي القديم لم يبلغ مراحل متقدمة من النضج تؤهل ممارسته النقدية لتكون مكتملة الأركان والصورة، ويستدلون في ذلك على خلو الأحكام النقدية أنذاك من التعليل العلمي الدقيق، ويرون أن هذا الأمر في ظل إدراك وفهم طبيعة التعليل العقلية، التي لا يمكن استيعابها إلّا بفكر واسع مكوّن. ثم إنّ التعليل لابد له من الاعتماد على جملة من المبادئ العامة، والعرب وقتها لم يضعوا شيئًا من ذلك، والحق أنه من خلال البحث المتأني، ومراجعة أغلب الآراء في تراثنا النقدي القديم، يظهر أن الأمر غير صحيح، وفيه اجحاف على جهود النقّاد في العصر الجاهلي والإسلامي وما تلاهما، والمشكلة تكمن في أن كثيراً ممّن اطّلع على هذه الآراء سلّم وآمن بها من غير تمحيص ومراجعة، والأكبر من ذلك أن عددًا كبيرًا من الدارسين انطلق منها وبنى عليها تفسيراته النقدية لتلك المرحلة من تراثنا القديم، نحن نؤمن بوجود عملية التعليل النقدي لبعض الأحكام منذ البدء ونؤمن بشكل مطلق بأن هذه العملية العقلية اتسعت فيما بعد، ونعي بشكل واضح وكبير بالفرق بين حضور هذا التعليل في هذه الفترة أو تلك وهذا الفرق بلا شك يرجع إلى عوامل منها التطور الحاصل في عقلية العرب ، ومنها دخول العرب ببعض الثقافات الجديدة التي من شأنها تنشيط المشهد النقدي، فضلاً عن مشاركة بعض المهتمين بعلم الكلام في الدراسات النقدية والبلاغية في ذلك الوقت . وهذا كله لا يمكن أن يسوق القصور أو عدم وجود التعليل في الدرس النقدي القديم وإلغاء حضوره في ممارسات النقاد .

وعلى ما يبدو أن الذين زعموا غياب التعليل من الباحثين والدارسين في تلك الفترة، استندوا إلى عدد من المشاهد النقدية الخادعة والمشهورة في نفس الوقت، حيث تردّدها كتب التراث، التي كانت خالية من الممارسات النقدية، كما في قصّة لبيد بن ربيعه، حيث سُئل عن أشهر الشعراء، فذكر أنه صاحب القروح "أمرؤ القيس" ثم ابن العشرين "طرفة" وغير ذلك من الأحكام النقدية .

التعليل النقدي عند المرزباني (ت 384هـ):

قبل الحديث عن المرزباني وما ذكره من تعليل لبعض الأحكام النقدية الصادرة على بعض نتاج الشعراء، نقف وقفتين مع ما شيع وقيل وانتشر بين الدارسين بخصوص التعليل النقدي العربي القديم.

أما الوقفة الاولى فتنطلق من مبدأ السكوت عن الشيء لا يعني لا وجود له، وهنا يمكن القول :حتى لو أنه سلّم بقلة عملية التعليل أو بعدم وجودها بالكامل، فهذا لا يعني أنّ العرب لم يكونوا يدركون أو يعون علّة النقد عند الحكم على النص الابداعي . وهل يجب على جميع النقّاد التصريح بالتعليل في كل أحكامهم؛ ليثبتوا أن عصرهم الذي بلغت فيه البلاغة والفصاحة ذروتها كان مدركا بهذه العملية، ثم لماذا لم يكن سكوتهم عن التعليل الشامل من باب الايجاز؟ وهي سمة من سمات العرب أو من باب مراعاة المخاطب وهذه هي بلاغة العرب . ثم إن الكثير منهم يرى أن تعليل كلِّ حكم يعني الاستخفاف بالمخاطب واتهامه بأنّه غير قادر على التمييز ومعرفة السبب في الحكم .

ولعل ما يؤيد ما ذهبنا اليه أن كثيراً من النقاد لا نجد في بعض الأحكام والمواقف تعليلا لهم، لكنّهم في مواقف أخرى يصرّحون بالتعليل، ويكشفون عنه سواء من تلقاء أنفسهم أو بتوجيه السؤال اليهم، منها على سبيل المثال قصة يونس النحوي حين سئل عن شعراء النقائض: أيّهم أشعر؟ فقال : اجتمعت العلماء على الأخطل، قال أبو عبيدة: فقلت لرجل إلى جنبه: سَلْهُ مَن هؤلاء العلماء ؟ فسأله . فقال : من شئت ابن أبي اسحاق وأبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمرو الثقفي، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن . هؤلاء طرقوا الكلام وما شوه لا كمن تحكون عنه لا بدويين ولا نحويين . فقلت للرجل: سَلْه فبأي شيء فضّل عليهم ؟ فقال: بأنه كان أكثرهم عدد قصائد جياد وليس فيها فحش ولا سقط [1].

وفي تفضيل الأوائل للنابغة ذكر أبو عبيدة : (يقول من فضل النابغة الذبياني على جميع الشعراء :هو أوضحهم كلاماً وأقلّهم سقطاً وحشواً، وأجودهم مقطع وأحسنهم مطلع، ولشعره ديباجة) [2]، هذه المواقف تدلّ دلالة واضحة على أنّ النقاد كانت لهم مواقف ورؤى في تعليل الأحكام النقدية صرّحوا بها أم لم يصرّحوا .

أما الوقفة الثانية : تكمن في أنّ المتأمل في تراثنا النقدي . والناظر إليه بعين الانصاف سيجده مليء بالمواقف النقدية الزاخرة بالأحكام المعللة بشكل واضح ومقنع، وكتاب (الموشّح) للمرزباني ت(384 ه) ، الذي نخصّه بالدراسة والبحث أحد شواهد كتب التراث في هذا المنوال. ومن منّا لا يعرف قصّة النابغة الذبياني مع حسان بن ثابت (رضي الله عنه) في سوق عكاظ . حين (كان النابغة الذبياني تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها . قال: فأول من أنشده الأعشى " ميمون بن قيس" أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت الانصاري)[3]

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دِمَا

وَلَدْنَا بَنِي العَنْقَاءِ وابْنَيْ مُحَرِّقٍ فأكْرِمْ بِنَا خَالاً وأكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا [4]

فقال له النابغة: (أنت شاعر، ولكنّك أقللْتَ جفانك وأسيافك وفخرتَ بمن ولدْتَ ولم تفتخرْ بمن ولدَك)[5].

وذكر المرزباني: إنّ الصولي بهر من نقد النابغة لحسان، إذ قال: (فانظر إلى هذا النقد الجليل، الذي يدلّ عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعرة. قال له: أقللت أسيافك؛ لأنه قال: (وأسيافنا) وأسياف جمع لأدنى العدد ولكثير سيوف، والجفنات لأدنى العدد والكثير جفان، وقال فخرت بمن ولدت؛ لأنه قال : ولدنا بني العنقاء وابني مُحَرَّق، فترك الفخر بآبائه، وفخر بمن ولد نساؤه[6] ثم ذكر إن النابغة قال له: (أقللت أسيافك ولمعت جفانك، يريد قوله : لنا الجفنات الغر، والغرّة لمعة

بياض في الجفنة ، فكأنَّ النابغة عاب هذه الجفنات، وذهب أنّه لو قال : لنا الجفنات البيض فجعلها بيضا كان أحسن)[7].

لقد افتخر حسان بقومه اليمانيين وبكرمهم، أذ هو يشير في البيتين بأنَّ قومَه لديهم أواني ضخمة يطبخون بها وينصبونها في وقت الضحى؛ ليأكل منها عامة الناس، فضلا عن شجاعتهم، إذ إن أسيافهم تقطر دماً باستمرار؛ بسبب نجدتهم للناس فاكرم بنا نحن الأخوال واكرم بالأبناء .

إنّ حسان بن ثابت وبحسب رأي النابغة لم يصب بالوصف، والاصابة بالوصف من أركان عمود الشعر وأساس المعنى فيه ، اذ إن تقليله للأجفان والسيوف وفخره بالولد دون الوالد خطأ، والاصابة هي أن يقع الشاعر في وصفه على الشيء الذي يتحدّث عنه ويلمّ به وبمعالمه المامًا صحيحًا دون اغفال أي جانب من جوانب معناه.

كذلك موقف أم جُنْدب مع امرئ القيس وعلقمة الفحل، إذ ذكر المرزباني تنازع امرئ القيس بن حجر وعلقمة بن عبده، وهو علقمة الفحل في الشعر، أيّهما أشعر؟ فقال كلٌّ واحد منهما: أنا اشعر منك، فقال علقمة: قد رضيت بامرأتك أم جندب حكما، فحكّماها، فقالت أم جندب لهما : قولا شعراً تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروي واحد [8]، فقال أمرؤ القيس قصيدة مطلعها:

خَليلَيَّ مُرَّا بي على أمِّ جُنْدبِ نُقَضِّ لُبِينَاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ.
فَإِنَّكُما إن تَنْظُرانِيَ سـاعَةً مِنَ الدَّهرِ تَنفَعْنِي لَدى أُمِّ جَنْدَبِ
أَلَم تَرَيانِي كُلَّما جِئتُ طارِقـاً وَجدْتَ بِها طِيباً وَ إن لَم تُطَيَّبِ

....
فَلِلسَّوطِ أُلهوبٌ وَ لِلسّـاقِ دِرَّةٌ وَ لِلزَّجرِ مِنهُ وَقعُ أَهوَجَ مُتعَبِ
فَأَدرَكَ لَم يَجهَد وَ لَم يَثنِ شَأوَهُ يَمُرُّ كَخُذرُوفِ الوَلِيـدِ المُثَقَّبِ [9]

وقال علقمةُ الفحل قصيدة مطلعها:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ في غَيْرِ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَقًّـا كُلُّ هذا التَّجَنُّبِ
لَيـالِيَ لا تَبلى نَصِيحَةُ بَيْنَنا لَيالِيَ حَلّـوا بِالسِّتـارِ فَغُرَّبِ

....
فَأَدرِكهنَّ ثانِياً مِن عِنـانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرّائِـحِ المُتَحَلِّبِ
إذا ما اقْتَنَصْنَا لَم نُخاتِلْ بِجِنَّةٍ وَ لكِن نُنادِي مِن بَعيـدٍ أَلا اركَبِ
أَخَا ثِقَةٍ لا يَلعَنُ الحَيَّ شَخصَهُ صَبُوراً عَلى العِلّاتِ غَيرَ مُسَبَّبِ [10]

فبعد أن أكملا انشاد القصيدتين، قالت لأمرئ القيس: علقمة أشعر منك، قال : وكيف ؟ قالت: لأنك زجرت وحركت ساقك وضربت بسوطك فجهدت فرسك[11]، تعني قوله في قصيدته :

فَلِلسوطِ الهوبٌ ولِلسـاقِ دُرَّةٌ وللزجرِ مِنْهُ وَقْـعُ أخْرَجَ مُهْذِبِ [12]

الهوب يعني الهب جريه حين زجره، وللساق درّةٌ أي اذا غمز درّ بالجري . والاخراج : الظلم وهو ذكر النعام، والانثى خرجاء في حال لونه وهو سواد وبياض لون الرماد . والاخراج الرماد . ومهذب أي مسرع في عدوه، قالت: وإنَّ علقمة جاهر الصيد، فقال :

فَأدْرَكَهُنَّ ثَانِياً مِنْ عِنَانِـهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِـحِ المُتَحَلِّبِ
اذا ما اقْتَنَصْنَا لَمْ نُخَاتِلْ بِجُنَّةٍ ولكنْ نُنَادِي مِنْ بَعِيدٍ ألا أركبِ [13].

اذْ إنَّ علقمة أدرك فرسه ثانياً من عنانه لم يضربْه ولم يتعبْه، فغضب عليها امرؤ القيس، وقال: إنّك لتبغضيني، فطلقها[14].

لم يكن امرؤ القيس بهذه الأبيات في منظور زوجته دقيقاً في وصفه واصابة معناه، اذ إن للكلام ألفاظ تستعمل على معان، تدلّ عليها ويعبّر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى اصابة المعنى كحاجته الى تحسين اللفظ؛ لأنّ المدار يعد على اصابة المعنى، ولأن المعاني تحل في الكلام محل الابدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، فالكلام يحسن بسلاسته وبسهولته ونصاعته وتخيّر لفظه واصابة معناه [15].

فلعلّ اولئك الذين ينكرون هذه المواقف أو التشكيك فيها يعتمدون على أنّ هذه الأحكام التعليلية لا يمكن لها أن تصدر من فكر عاش في عصر جاهلي وأخرى قريبة منه . وهذا الاعتماد من لدن البعض غير منطقي ولا مقنع؛ لأن العرب في هذه العصور كانوا في قمّة البلاغة والفصاحة؛ ولهذا تحدّى الله سبحانه وتعالى في القران الكريم لهم اثبات لهذه القوة والتميز في عدد من آياته، يضاف إلى هذا أن الروايات ذكرت إنهم كانوا يميزون في كثير من المواقف الكلام وغيره، وإن اختيارهم للمعلقات دليل وحجة لذلك، فبعد هذه المقدرة اللغوية الكبيرة لا يمكن الافتراض بأنهم عاجزين عن تعليل الحكم النقدي واعطاء سببه إنْ احتاج ذلك . ثم هل من الاستقامة بان يكون الابداع الشعري شيء والتعليل النقدي شيء اخر.

ومن شواهد التراث على التعليل ذكر المرزباني تشاجر الوليد ابن عبدالملك ومسلمة أخوه في شعر امرئ القيس والنابغة الذبياني في وصف طول الليل أيّهما أجود؟ فرضيا بالشعبي فأُحْضِرَ[16]، فأنشده الوليد قول النابغة:

كَلِيني لِهَمّ يا أُمَيْمَةُ نَـــاصِبِ وَلَيْلٍ أقَاسِيهِ بَطِـئ الكَـوَاكِـبِ
تَطَاوَلَ حَتّى قُلْتُ لَيْسَ بِمنْقَضٍ وَلَيْسَ الّـذِي يَرْعَى النُّجُومَ بآيِبِ
وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْـــلُ عازِبُ هَمّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلّ جَانِبِ [17]

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْـواعِ الهُمُـومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّـا تَمَطّى بِصُلْبِـــهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَـازًا وَنَـاءَ بِكَلْكَلِ
ألا أيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الاصْبَاحُ مِنْكَ بِأمْثَلِ
فَيَالَكَ مِنْ لَيلٍ كَـــأَنَّ نُجُومَهُ بِـــأمْرَاسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ [18]

قال الصولي: (فأما قول النابغة وصدر أراح الليل عازب همّه ... فإنه جعل صدره مألفا للهموم . وجعلها كالنعم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه كما تريح الرعاة السائمة بالليل إلى أماكنها، وهو أول من وصف أن الهموم متزايدة بالليل وتعبه الناس ... والمبتدئ بالإحسان فيه امرؤ القيس، فإنَّه بحذقه وحسن طبعه وجودة قريحته كره أن يقول : إن الهمَّ في حبّه يخفُّ عنه في نهاره، ويزيد في ليله، فجعل الليل والنهار سواء عليه في قلقه وهمّه وجزعه وغمه)[19].

ألا أيّها اللّيْلُ الطَّويل ألا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الأصْبَاحُ مِنْكَ بِأمْثَلِ

يريد القول: إنّه مهموم بشكل متواصل ودائم في الليل والنهار على حد سواء، وبهذا فأن أبيات امرئ القيس في وصفه لليل أبيات اشتمل الاحسان عليها ولاح الحذق فيها وبان الطبع بها، فما فيها معاب الّا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذّاق بنقد الشعر وتميزه ، ولولا خوفي من ظن بعضهم أنّي اغفلت ذلك ما ذكرته. والعيب قوله بعد البيت الذي ذكرته :

فَقُلْتُ لَهُ لَمّـا تَمَطّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَـلِ
ألا أيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الأصْبَاحُ فِيْكَ بأمْثَلِ

فلم يشرح قوله : (فقلْتُ لَه) ما أراد الّا في البيت الثاني فصار مضافاً اليه متعلّقا به: وهذا عيب عندهم؛ لأن خير الشعر مالم يحتجّ بيت منه إلى بيت اخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض إلى وصوله الى القافية[20].

وذكر المرزباني إن كثيراً دخل على عبد الملك فأنشده مدحته التي يقول فيها :

وَصُلْتَ فَنالَتْ كَفُّكَ المَجْدَ كُلَّهُ وَ لَمْ تَبلُغِ الأَيدِي السّوامِي مِصالَها
على ابْنِ أَبِي العَاصي دِلاصٌ حَصِينَةٌ أَجَادَ المُسَدِّي سَرْدَهَا وأَذَالَها
يَؤُودُ ضَعِيفَ القَوْمِ حَمْلُ قِتَارَهَا وَيَسْتَضْلِعُ الطِّرْفُ الأَشَمُّ حمَالَها
وَ سَوداءَ مِطراقٍ إِلى آمِنِ الصَّفا أَبِيٍّ إِذا الحاوِي دَنَا فَصَدالَها
كَفَفْتُ يَداً عَنها وَ أَرضَيْتُ سَمعَها مِنَ القَوْلِ حَتَّى صَدَّفَتْ ما وَعَى لَها [21]

فقال له عبدالملك: (قول الأعشى لقيس بن معدي كرب أحب إلي من قولك ... ألا قلت كما قال الاعشى)[22] :

وَ لَبُونِ مِعزابٍ حَوَيْتَ فَأَصبَحَتْ نُهبَى وَ آزِلَةٍ قَضَبْتَ عِقالَها
وَ لَقَد جَرَرتَ إِلى الغِنى ذا ناقَةٍ وَ أَصابَ غَزْوُكَ إِمَّةً فَأَزالَها
وَإِذا تَجِيء كَتِيبَةٌ مَلْومَةٌ خَرْسَاءُ تُغْشِي مَنْ يَذُودُ نِهَالَها
تَأوِي طَوائِفُها إِلى مُخضَرَّةٍ مَكرُوهَةٍ يَخشى الكُماةُ نِزالَها
كُنْتُ المُقَدَّمَ غَيْرَ لابِسِ جُنَّةٍ بِالسَّيْفِ تَضْرِبُ مُعْلَمًا أَبْطَالِها
وَ عَلِمْتُ أَنَّ النَّفسَ تَلقَى حَتفَها ما كانَ خالِقُها المُلِيكُ قَضى لَها [23]

فقال كثير:(يا أمير المؤمنين وصف الاعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير ووصفتك بالحزم والعزم[24] عندها رضي منه عبدالملك، وقال المرزباني: (رأيت أهل العلم بالشعر يفضّلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كثير؛ لأن المبالغة أحسن عندهم من الاقتصار على الأمر الأوسط والأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الأقدام بغير جُنَّة على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ففي وصف الأعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه؛ لأن الصواب له ولا لغيره الا لبس الجُنَّة ، وقول كثير يقصر عن الوصف)[25]، أي أنّ الأعشى أصاب وكثير لم يصب في وصفه، ومن ذلك تعليل زبيدة لمدحة أحد الشعراء لها، قال فيها:

أَ زُبَيْدَةُ ابنَةُ جَعْفَرٍ طُوبى لِسَائِلِكِ المُثَابْ
تَعْطِينَ مِنْ رِجْلَيْكِ مَا تُعْطِي الأَكُفُّ مِنَ الرِّغَابْ [26]

يروي إن خدمها همّوا إليه لضربه؛ بسبب قوله، لكنَّها منعتهم ووجَّهتهم بعدم ارتكاب مثل الفعل، معللة ذلك بقولها :(إنما أراد الخير فأخطأ، ومن أراد الخير فأخطأ أحب الينا ممن اراد الشر فأصاب، وإنما أراد أن يقول قول الشاعر: شمالك أجود من يمين غيرك، وقفاك أحسن من وجه غيرك، فظن أنه إذا ذكر الرجلين أبلغ في المدح)[27].

فعلى الشاعر توخّي الدِّقة والحذر عند اختيار الالفاظ للتعبير عن المعاني بشكل سليم بعيد عن الغرابة والاستهجان، وضرورة مراعاة حال المخاطب أو المتلقي، إذ لا يمكن مخاطبة العامّي بمثل خطاب الملك أو الوزير؛ لأن مثل هذا يفسد متعة أبياته، وهذا ما أكّده ابن طباطبا العلوي ت (٣٢٢هـ)، حيث قال: يجب أن (يخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوخى

حطّها من مراتبها. وإن يخلطها بالعامة . كما يتوخى أن يرفع العامة الى درجة الملوك)[28].
وذكر المرزباني بيتين لامرئ القيس قال فيهما :

كأنّي لم أرْكَبْ جَـوَادًا لِلَّـذةٍ وَلَم أتبطَّنْ كَاعباً ذات خَلْخَال

وَلَمْ أَسْبَأ الزَّقَّ الرَّوِي وَلَـمْ أَقُلْ لِخَيْلِي كرّي كرَّة بَعْدَ إجْفَال [29]

قال المرزباني: (هما بيتان حسنان. لو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الأخر كان أشكل وأدخل في استواء النسج)[30] ففي منظوره إن البيتين فاسدان؛ لأن الشاعر جعل الغزل مجاوراً في تلك البيتين للشجاعة، والذي يوجبه نسج الشعر مجاورة الشجاعة للشجاعة والغزل للغزل . اذ إن مفهوم إحكام النسج قديم قدم النقد، وإن أول من تنبَّه إليه الجاحظ (ت 255هـ)

حينما قال: (إنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير)[31]، فهو يريد أن يكون النص منسجمًا لا مشتتًا؛ لأن التشتيت يعقِّد المعنى ويبعد مغزاه، في حين وضع المفردة مكانها المناسب يفضي إلى وضوح المقصد لذلك عاب المرزباني أبيات امرئ القيس.
ومن الأشياء التي تنبّه إليها المرزباني مخالفة عدد من الشعراء العرف والمألوف في بعض أشعارهم، فحكم على بعضها، ثم علّل حكمه منها على سبيل المثال قول أمرئ القيس:

وَأرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفَانَـةً كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرْ [32]

قال المزرباني :(إذا غطّت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريماً)[33]، فالشاعر خالف المعروف في هذا المعنى حين جعل شعرها يغطي ناصية الوجه . إذ إن الفرس الجيد لا يوصف بكثافة شعر الناصية كما يتصوّر الشاعر، وإنما سماتها (أن تكون حصاء قليلة شعر الناصية)[34].
وفي حديث المزرباني عن ائتلاف المعنى والقافية قال :(من عيوب الشعر أن تكون القافية مستدعاة، قد تكلّف في طلبها فاشتغل معنى سائر البيت بها[35] كقول أبي تمّام الطائي:

كالظَّبْيَة الأدْمَاء صَافَتْ فارْتَعَتْ زَهْرَ العرار الغضَّ والجثجاثا [36]

ذكر المرزباني إن هذا البيت جاء لطلب القافية وإلّا فليس في وصف الظبية بأنها ترعى الجثجاث فائدة كبيرة لا سيما وإنه ليس من مراعي الظباء، وعلّل حكمه هذا بقوله:
إن الظبية اذا قصد لها بأحسن أحوالها فيجب القول إنها تعطو الشجر؛ لأنها حينئذ رافعة رأسها مع شيء من الذعر[37] .
من الضروري اختيار القوافي التي تتناغم ومفردات البيت الشعري من غير كدٍّ أو عناء أو تكلّف في الحصول عليها واشغال معنى البيت بها . إذ إن للقافية اثراً مهما و كبيراً في تجسيد معنى البيت الشعري ولا غنى للبيت عنها؛ لأنها وقفة أو استراحة المتلقي ولا قيمة للشعر من دونها .
فعلى الشعراء أو المبدعين الانتباه إلى تعليقات النقاد على نتاجهم الإبداعي و الأخذ بالحسبان أحكامهم و مقترحاتهم عند صناعة أي عمل إبداعي ، إذ هي مهمة و لولا أهميتها لما كانت متقاربة عند أغلب النقاد فهي السبيل المؤدي إلى صناعة نص محكم جزل الألفاظ له القدرة على جلب انتباه القارئ.
وذكر المرزباني أن كثير عزة أنشد سكينة بنت الحسين قصيدته التي منها:

"أشاقَكَ بَرقٌ آخر الليلِ واصبُ تضمَّنَهُ فِرْشُ الجبا فالمَساربُ
تـــألَّقَ واحْمَوْمى وخَيَّمَ بالرُّبى أحـــمَّ الذُّرى ذو هيدبٍ متـــراكبُ
إذا حرَّكتْهُ الريحُ أرْزَم جانِبٌ بلا هزَقٍ مِنْهُ وأوْمضَ جـــانِبُ

وهبْت لسعدى مَــاءَه وَنَباتَه كَمَا كلّ ذي ودٍّ لِمَنْ وَدَّ واهـبُ
لتروى بِهِ سعدى ويُرْوى صَدِيقُها وَيَغدقُ أعدادٌ لهـــــــا ومشاربُ"[38]

قالت سكينة: (أتهب لها غيثا عاما، جعلك الله والناس فيه أسوة؟ فقال: يا بنت رسول الله "صلى الله عليه وسلم" وصفت غيثا فأحسنته وأمطرته وأنبته وأكملته ثم وهبته لها، فقالت: فهلا وهبت لها دنانير ودراهم)[39]. على ما يبدو أن سكينة تميل إلى الواقع، وتريد من كلمات الشاعر النفع والفائدة، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى واقعية المرأة، كذلك طالبت بمطابقة الواقع وطبيعة الأشياء، فالشاعر إذا ما خرج على الحقيقة أو خالفها بخل بالمعنى. والعرب لم يلتفتوا في الشعر إلى شيء قدر التفاتهم إلى صدق المعنى وحقيقته؛ إذ إن الشعر تقرير لحقائق الحياة، وإن أغلب العرب لا ينسجمون مع الكلام الذي لا يتفق في معناه مع ما ألفوه في حياتهم، إذ إنهم اهتموا بدقة الوصف وعدوه سر الابداع الشعري. لذلك فضلوا قول والبة بن الحباب:

"يـــــا شَقيقَ النَّفسِ مِنْ أَسَدِ نمْتَ عَنْ ليلي وَلَـــــمْ أَكَدِ" [40]

علـى قول أبي نؤاس:

" يــا شَقيقَ النَّفْسِ مِــنْ حَكَمِ نمْتَ عَنْ ليلي وَلَمْ أنَمِ"[41]

وعدوه الأجود معللين بذلك بـ (زعم أنه لم يكد ينام، وهذا قال: لم أنم)[42] وحجة تفضيله أو سببها، إن والبة قارب الحقيقة في قوله على حين أن أبا نؤاس لم يقاربها، ولذلك صار هو الأفضل، إذ إن العمل الفني بمقاربته للحقيقة يزداد وقعه في النفوس ويفضل نسجه.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة المتواضعة في رحاب التعليل النقدي عند المزرباني (ت٣٨٤هـ) في كتابه(الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء) أخلص الى القول: بأن التعليل النقدي لبعض الأحكام النقدية لم يكن حكراً على ناقد معين إنما هو سبيل عدد منهم؛ بغية تعزيز أحكامهم لاقناع المتلقي بدقّة الحكم، وتنبيه المبدع على الزلل والقصور في النص الابداعي لتلافيه . سيما معاني الشعر فقد وضعوها نصب أعينهم مؤكدين على إصابة الوصف بالمعاني والألفاظ المكشوفة التامة التي يبلغها المتلقي بقليل من التأمل.

أبان البحث إن التراث النقدي القديم بلغ مرحلة جيدة من النضج، وإنه مليء بالأحكام النقدية المعللة . وهذا مغاير لما ذهب إليه بعض الدارسين الذين اجحفوا بحقه ولم ينصفوه،

ابان البحث بإن هذه العملية النقدية تطورت تباعاً وعلى مرّ العصور، وهذا بلا شك راجع إلى عوامل عدّة منها: تطور العقلية العربية، ودخول بعض الثقافات الاجنبية، فضلاً عن المشاركة الفاعلة لبعض المهتمين بعلم الكلام في الدراسات النقدية والبلاغية.

وقد كشف البحث على أن العرب أصحاب قدرة لغوية وبلاغية، فمن غير المعقول افتراض أنَّهم عاجزون عن ذكر سبب وحجة حكمهم النقدي على النص الابداعي .

الهوامش:

1– ينظر الأغاني ، أبو الفرج الاصفهاني تحقيق : سمير جابر ، دار الفكر ، بيروت ، ط2،ج8،ص32
2– الشعر والشعراء ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ) دار الحديث ، القاهرة ، 1423هـ ، ج1 ، ص166
3 – الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة انواع من صناعة الشعر لأبي عبدالله المرزباني (ت 384هـ) تحقيق علي البجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ص77
4 – ديوان حسان بن ثابت الانصاري شرحه وكتب هوامشه وقدم له الاستاذ عبد مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، ط2 ، 1414هـ - 1994م ، ص219
5 – الموشح ص77
6 – المصدر نفسه ص78
7 – المصدر نفسه ص78

8 – ينظر: المصدر نفسه ص35
9 – ديوان امرئ القيس ، اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط2 -2004م-ص74
10 – ديوان علقمة الفحل شرح ، السيد احمد الصقر ، المطبعة المحمودية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1353هـ ، 1935م. ص19
11 – ينظر: الموشح ص37/36
12 – ديوان امرئ القيس ص77
13 – ديوان علقمة ص21
14 – ينظر: الموشح ص 37
15 – ينظر: كتاب الصناعتين ، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت 395هـ) تحقيق علي البجاوي ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية، بيروت ، 1419هـ ،ص69
16- ينظر الموشح ص38-39
17 – ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط3 ، 1416هـ - 1996م .
18 – ديوان امرئ القيس ص48-49
19 – الموشح ص39-40
20 – ينظر: المصدر نفسه ص 40-41
21 - ديوان كثير عزة ، جمعه وشرحه د. احسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان ، 1391هـ 1972م- ص 85
22- الموشح ص197
23 – ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس شرح وتعليق : محمد حسين ، مكتبة الآداب . المطبعة النموذجية / 1950 م ص33.
24 – الموشح ص197
25 – المصدر نفسه ص197
26 – المصدر نفسه ص459
27 – المصدر نفسه ص459
28 – عيار الشعر . محمد بن احمد بن طباطبا العلوي (ت322هـ) تحقيق د. عبدالعزيز صالح المانع ، مكتبة الخانجي القاهرة ، د.ت ، ص9
29 – ديوان امرئ القيس ج1 ، ص138
30 – الموشح ص43
31 – كتاب الحيوان لأبي عثمان الجاحظ (ت255هـ) دار الكتب العلمية بيروت ، ط2 ، 1424هـ ، ج3، ص67
32 – ديوان امرئ القيس ج2 ، ص624
33 – الموشح ص44
34 – عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم ، د. محمود بن مريسي الحارثي، مكة المكرمة ، ط1 / 1417هـ / 1996م- ص351
35 – الموشح ص299
36 – ديوان أبي تمام، شرح الخطيب البتريزي، تحقيق محمد عبده عزّام ، دار المعارف ، القاهرة ط4، د.ت ج1ص312
37ـ ينظر: الموشح ص299
38ـ ديوان كثير عزة، ص156،ص157
39ـ الموشح،ص246
40ـ المصدر نفسه، ص241
41ـ المصدر نفسه، ص241
42ـ المصدر نفسه، ص241

المصادر والمراجع

1 – الأغاني ابو الفرج الاصفهاني تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2، د.ت
2 – ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي : تحقيق محمد عبد عزّام، دار المعارف ، القاهرة ، ط4، د.ت
3 – ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق محمد حسين ، مكتبة الأدب بالجاميز، المطبعة النموذجية ، 1950 م .
4 – ديوان امرئ القيس اعتنى به عبدالرحمن الصاوي ، دار المعرفة بيروت ، ط2، 2004م .
5 – ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، شرحه وكتب هوامشه وقدّم له الأستاذ عبد مهنا ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط2، 1414هـ ، 1994م .
6 – ديوان علقمة الفحل ، شرح السيد احمد الصقر ، المطبعة المحمودية ، القاهرة مصر، ط1 ، 1353هـ ، 1935م .
7 – ديوان كثير عزة ، جمعه وشرحه د. احسان عباس ، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان ، 1931هـ-1971م .
8 – ديوان النابغة الذبياني ، شرح وتقديم عباس عبدالساتر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط3 ، 1996م .
9 – الشعر والشعراء ، ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276هـ)، دار الحديث القاهرة ، 1423م .

10 – عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم ، د. محمود بن مريسي الحارثي ، مكة المكرمة ، ط1، 1417هـ - 1996م .
11 – عيار الشعر، محمد بن احمد بن طباطبا العلوي (ت 322هـ) تحقيق : د. عبدالعزيز صالح المانع، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،د .ت
12 – كتاب الحيوان لأبي عثمان الجاحظ (ت 255هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2 ،1424هـ .
13 – كتاب الصناعتين ، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت 395هـ)، تحقيق علي البجاوي ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم . المكتبة العصرية بيروت ، د.ت
14 – الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، لأبي عبدالله المرزباني (ت 384 هـ) تحقيق علي البجاوي ، دار الفكر ، القاهرة . د . ت

References

1 - Al-Isfahani، A. (n.d.). *The Songs* (2nd ed.). Al-Fikr press. Beirut.
2– Al-Tabrizi، A. (n.d.). *Diwan Abi-Tammam* (4th ed.). Al-Maarif press. Cairo.
3– Qays، M. (1950). *Diwan Al-Asha Al-Kabir Maymoon Ben Qays*. Al-Jamamiz Literature Library.
4 – Al-Sawy، A. (2004). *Diwan Imru' Al-Qais* (2nd ed.). Al-Ma'rifah press. Beirut.
5 – Muhanna، A. (1994). *Diwan Hassan Bin Thabit Al-Ansari*. Al-Kutub Al-Ilmiya press. Beirut. Lebanon.
6 – Al-Saqr، A. (1935). *Diwan Alqama Al-Fahl* (1st ed.). Al-Mahmoudia Press. Cairo. Egypt.
7 –Abbas، I. (1971). *Diwan Katheer Azza*. House of Culture press. Beirut، Lebanon.
8 – Sater، Abdel. (1996). *Diwan Al-Nabigha Al-Dhubiyani* (3rd ed.). Al-Kutub Al-Ilmiyyah press. Beirut، Lebanon.
9 - Al-Dinuri، A. (2002). *Poetry and poets*. Al-Hadith press. Cairo.
10 - Al-Harthy، M. (1996). *The post of Arabic poetry; origin and concept* (1st ed.). Nadi Makkah althakafi aladabi، Makkah Al-Mukarramah.
11 - Al-Alawi، M. (n.d.). *Caliber of poetry*. Al-Khanji Library press. Cairo.
12 - Al-Jahiz، O. (2012). *The Book of Animals* (2nd ed.). Al-Kutub Al-Ilmiya. Beirut.
13 - Al-Askari، A. (n.d.). *The Book of Two Industries*. Modern Library press. Beirut.
14 - Al-Marzbani، A. (n.d.). *Al-Muwashah: Scholars' Challenges to Poets in Several Types of Poetry Industry*. Al-Fikr press. Cairo.